Al-Milal (July-December 2024)
Vol. 6, No. 2 ISSN: 2663-4392

التابع عند غاياتري سبيفاك / نحو تصوّر جديد لما بعد الكولونيالية

د.سعيدة تومي [1]

The Subaltern According to Gayatri Spivak / Towards A New Post-Colonial Vision

Abstract: : Post-colonial theory that reveals and addresses colonial discourse from the colonizer's point of view is a re-reading of events and history from a very different angle decided by the subordinate or colonizer The relationship between the East and the West is analyzed in cultural accountability by a few researchers who have managed to reach Western thought and teach at its universities and present a different vision than what the colonizer has provided to correct the human path and establish national identity.

One such Indian critic was Gayatri Spivak, who sought to dismantle colonial discourse. Her book, Can the Subaltern Speak?" was the result of a major effort in which she defended Eastern women, defended the immigrant, internal and external affiliates, and was also interested in literature, culture and confronting Western masculinity.

Indian critic Gayatri Spivak is one of the poles of post-colonial theory and an actor in the dismantling of colonial central discourse, especially patriarchal masculine discourse (internal subordinate), which has dominated for years so long that women live under the coercion of the male voice multiplier on the one hand and the colonial power on the other (external subordinate).

Keywords: *Subordinate, Post-colonialism, Gayatri Spivak, internal subordinate , external subordinate*

[1] Saida Toumi /University of Bouira جامعة آكلي محند أولحاج /البويرة – الجزائر, s.toumi@univ-bouira.dz

تقديم:

ما بعد الكولونيالية نظرية تكشف و تعالج الخطاب الاستعماري من وجهة نظر المستعمَّر إنها إعادة قراءة للأحداث و التاريخ من زاوية مغايرة تماما يقررها التابع أو المستعمَر ، تحلل العلاقة بين الشرق و الغرب ضمن مساءلة ثقافية قدمها ثلة من الباحثين الذين تمكنوا من الولوج إلى الفكر الغربي و التدريس في جامعاته و طرح رؤية مختلفة عن ما قدمه المستعمِر تصحيحا للمسار الإنساني وتثبيتا للهوية القومية .

كان من بين هؤلاء الناقدة الهندية غاياتري سبيفاك التي سعت إلى تفكيك الخطاب الاستعماري إذ يعد كتابها " هل يستطيع التابع أن يتكلم؟ " ثمرة جهد كبير دافعت فيه عن المرأة الشرقية ودافعت عن المهاجر وعن التابع الداخلي و التابع الخارجي واهتمت كذلك بالأدب والثقافة و مواجهة الهيمنة الذكورية الغربية فكانت أوّل منظّرة نسوية في مرحلة ما بعد الاستعمار.

تتمثّل إشكالية هذا المقال الموجز في:

أوّلا: كيف نظّرت غياتري سبيفاك للتابع؟

ثانيا: هل استطاع التابع أن يتكلم؟

ثالثا: ما هو التصوّر الجديد الذي طرحته في ضوء دراستها لقضية التابع؟

أوّلا: النظرية ما بعد الكولونيالية / مساءلة المفاهيم : شهدت فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية (1939م/1945م) انحسار ظل الاستعمار الأوروبي عن كثير من بلدان افريقيا وآسيا و غيرهما ، واقترن ذلك بمولد أدب جديد أو توجه جديد يعبّر عن حيرة الدول المستقلة حديثا بين ماض استعماري و حاضر لم تتبلور ملامحه بعد ويعرف هذا التوجه بـ (أدب ما بعد الكولونيالية) ، والبحث عن هوية قومية و ثقافية وحضارية مميزة، و« هو ما تجلى في أعمال كتاب من أمثال ف.س نايبولو نادين جورديمير و ول سونكا،

وفي الأعمال الفكرية و النقدية لمنظري هذا الأدب وأبرزهم فرافز فانون وإدوارد سعيد وهومي بابا و بول جيلوري وغاياتري سبيفاك و هم يهتمون في نقدهم بموضوعات الوطن والمنفى والشتات والهوية.[1]

جاءت نظرية "ما بعد الكولونيالية " لتطرح جملة من التساؤلات التي فرضتها المرحلة الانتقالية، والتي جمعت بين مرحلة "الخطاب الاستعماري" والنظرية "ما بعد الاستعمارية" (Colonial discourse and Poste- colonial)؛ اللذين عرفهما كتاب "دليل الناقد الأدبي" على النحو الآتي: « يشير المصطلح الأول إلى تحليل ما بلورته الثقافة الغربية في مختلف المجالات من نتاج يعبر عن توجهات استعمارية إزاء مناطق العالم الواقعة خارج نطاق الغرب (...) أما المصطلح الثاني، "النظرية ما بعد الاستعمارية "،فيشير إلى نوع آخر من التحليل ينطلق من فرضية أن الاستعمار التقليدي قد انتهى وأن مرحلة من الهيمنة سمى أحيانا المرحلة الإمبريالية أو الكولونيالية- كما عربها بعضهم- قد حلت وخلقت ظروفا مختلفة تستدعي تحليلا من نوع آخر».[2]

وإن قدم هذا التعريف نظرتين متعارضتين من خلال اختلاف الخطاب بين مرحلة الاستعمار والمرحلة التي تلتها؛ فإنه يحيل إلى تعدد القضايا التي عمدت إلى استظهار أوجه الاختلاف بين هاتين المرحلتين أبرزها: الغرب والشرق، وتجليات الخطاب الاستعماري داخل النصوص الإبداعية لمثقفي مرحلة ما بعد الاستعمار، والصراع الفكري لمثقفي هذه المرحلة بين ما مضى وما هو موجود أو مطلوب، إلى جانب جدلية الأنا والآخر التي عبرت عن توجه كل واحدة منها – أي الأنا عن الآخر والآخر عن الأنا – .

ولعله من عجائب القدر أنّ الخطاب الذي جاء لتفكيك مركزية الخطاب الغربي قد تربى في أحشائه و تطور بين ظهرانيه ، ذلك أنّ نظرية الخطاب ما بعد الكولونيالي ظهرت في المشهد الثقافي الجامعي للدول الإنجلوفونية و خاصة الولايات المتحدة الأمريكية و ارتبطت بجامعة كولومبيا ، فيما ارتبطت الأرسطية الجديدة (في النقد) بجامعة شيكاغو و دراسات الجندر و الكتابة النسوية بجامعة انديانا و دشنها جامعيون من الأقليات المهاجرة من مجتمعات أو بلدان ما بعد الكولونيالية ، و في مقدمة هؤلاء الثالوث البارز :

[1] - ماهر شفيق فريد ، ما وراء النص / اتجاهات النقد الأدبي الغربي في يومنا هذا ، الدار المصرية اللبنانية ، لبنان ، ط1 ، 2016 ، ص 301.

[2] - ميحان الرويلي وسعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، إضاءة لأكثر من سبعين تيارا ومصطلحا نقديا معاصرا، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط3، 2002، ص:158.

ادوارد سعيد و الهنديان هومي بهابها و غياتري سبيفاك و كل هؤلاء من أبناء العالم الثالث ممن قدموا بتجارب شخصية و جروح كولونيالية الى العالم الأول (الأمريكي) للتدريس بكبريات جامعاته[1].

و قد جاءت دراسات ما بعد الكولونيالية لتنتظم باعتبارها مؤسسة فاعلة في الكتابة ومروجة لأفكار معينة عبر مشروع يتبنى حالات كتابية تنحو إلى تفكيك الخطاب الاستعماري و إلى إعادة النظر في تاريخ آداب الامبراطوريات السابقة ، بحيث تشمل المستعمرات التي واجهت الاستعمار الأوروبي بما تركه من آثار مختلفة [2].

وقبل الولوج إلى ما قدمته نظرية ما بعد الكولونيالية و التركيز في المقام الأول على دراسة التابع عند غياتري سبيفاك موضوع الورقة البحثية لابد من الإشارة إلى إرهاصاتها؛ التي بدأت في خمسينيات القرن العشرين من خلال أعمال: "ألبير ميمي"(Albert Memmi)،"جورج لامينج" (George Lamming) و"فرانز فانون" (Frantz Fanon)؛ الذي يعد الأب الروحي لهذه النظرية عبر كتاباته التي طرحت قضايا في صميم النظرية –"ما بعد الكولونيالية"– ؛ وقد تحدث في هذه النقطة بشكل مركز الباحث "محمد صبحي" أيضا ؛الذي أشار إلى تأثير "فرانز فانون" الكبير في كُتَابْ مرحلة "ما بعد الكولونيالية" في قوله[3] :

« إدوار سعيد جعل من فانون المدافع عن سرد التحرير المضاد الذي ينتمي إلى حقبة ما بعد الحداثة؛ وهومي بابا نحت من أفكار فانون معمارا نظريا لعالم ثالث ما بعد بنيوي؛ وعبد الرحمن جان محمد اكتشف فيه منظرا مانويا للاستعمار والنفي المطلق؛ وبينيتا باري وجدت فيه برهانا ساطعا على النظرة التفاؤلية للأدب والعمل الاجتماعي؛ أما عند سبيفاك فقد ظهر فرانز فانون في أصدق صوره وأكثرها بساطة وإقناعا: الطبيب النفسي الذي خرج من بين أبناء البلد لكي يحلل بعمق ونفاذ ما تعكسه تلك المرآة الرهيبة المعقدة :الإمبريالية الثقافية ».

ففرانز فانون مثلا الطبيب و الفيلسوف(ولد 1925 في فور دو فرانس بجزيرة المارتينيك الواقعة في البحر الكاريبي، والتي تمثل جزءا من أراضي ما وراء البحار الفرنسية.) يناصر الثورة الجزائرية ويقف في صف

[1] - ينظر : بسمة جديلي ، دراسات ما بعد الكولونيالية من منظور أبرز أقطابها ، مجلة إشكالات في اللغة و الأدب ، تامنغست ، العدد9، 2016 ص 238/237.

[2] - ينظر : المرجع نفسه ، ص 238

[3] - صبحي حديدي، الخطاب ما بعد الكولونيالي ، في الأدب والنظرية النقدية، مجلة الكرمل، العراق، العدد 47، 1 يناير1993 ص:80/79.

الأقليات ففي كتبه "بشرة سوداء، أقنعة بيضاء" 1952م و"المعذبون في الأرض"1961م ذهب إلى أنّ الهوية السوداء لا يمكن أن تعرف ذاتها وتحدد خصوصياتها إلا عندما يسقط القناع عن القاهر والمقهور.

تأثرت النظرية ما بعد الكولونيالية بما قدمه منظرو و مفكرو هذه المرحلة، فإلى جانب دراستها للملمح الثقافي والسياسي لما وراء الفترة الاستعمارية؛ قامت أيضا على دراسة الإرث الثقافي الكولونيالي للمستعمرات بين قبوله وتكيفه مع ثقافة المستعمِر؛ وبين مقاومته ورفضه لها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة؛ كون الأدب يتلون حسب حالات السلم أو الصراع الفكري والنفسي لمثقفي المرحلة الانتقالية الذين انتقدوا الأوضاع السياسية السيئة محاولين إرساء نمط فكري وتوجه إيديولوجي يرسخ فكر تحرري ويخلق فضاء يبتعد عما قدمته المرحلة الاستعمارية؛ من خلال رصد المخلفات السلبية التي تركتها، والأوضاع القاسية التي كابدها ويكابدها الفرد، إلى جانب دراسة نبض الباحث عن الهوية؛ وهذا عبر التغلغل في ثنائيات متعارضة انطلاقا من السرد المضاد للمستعمِر؛ عبر فضح ايديولوجيته المغلفة بالتمدن.

هذه النظرية هي قراءة للفكر الغربي في تعامله مع الشرق من خلال مقاربات نقدية عديدة بكل أبعادها الثقافية والسياسية و التاريخية و تسعى إلى تحليل الخطاب الاستعماري تفكيكا وتركيبا و تقويضا بغية استكشاف الخطاب المركزي والأنساق الثقافية التي تتحكم في توجيهه.

ما بعد الكولونيالية تعيد قراءة التاريخ من زاوية المستعمَر ظهرت في المشهد النقدي الجامعي للدول الانجلوفونية وهي الدول التي تتكلم اللغة الإنجليزية وتعدها لغة رسمية وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية وارتبطت هذه النظرية بجامعة كولومبيا على وجه الخصوص، تأسست على يد "إدوارد سعيد" ،"هومي بابا"، و "غاياتري سبيفاك" الذين يدعوهم روبرت يانغ بالثالوث المقدس للنظرية ما بعد الكولونيالية.

ثانيا: التابع عند غاياتري سبيفاك / نحو تصور جديد لما بعد الكولونيالية: تعد الناقدة الهندية غاياتري سبيفاك أحد أقطاب النظرية ما بعد كولونيالية ومن الفاعلين في تفكيك الخطاب المركزي الاستعماري و خاصة الخطاب الذكوري الأبوي الذي سيطر لسنوات طوال ما جعل المرأة تعيش تحت قسر مضاعف الصوت الذكوري من جهة والسلطة الاستعمارية من جهة أخرى.

ولدت غاياتري سبيفاك في البنغال الغربي سنة 1942م من عائلة تنتمي إلى الطبقة الوسطى وهي تنتمي إلى الجيل الأول من مثقفي الهند بعد الاستقلال وقد لمع نجمها في العالم إثر ترجمتها الإنجليزية لكتاب

"في علم الكتابة" لـ "جاك دريدا" بمقدمة وافية كتبتها سبيفاك، و في تلك المقدمة يعود الفضل ليس لشهرتها فقط ، بل لدخول استراتيجية التفكيك في صلب الثقافة الإنجلوسكسونية ،[1] كما لها عدة مقالات وكتب نذكر منها "في عوالم أخرى/ مقالات في السياسة الثقافية" 1987م و"ناقد ما بعد الاستعمار: لقاءات، استراتيجيات، حوارات" عام 1990م و كذا كتابها "نقد عقل ما بعد الاستعمار" 1999م أما الأكثر شهرة فكان مقالها "هل يستطيع التابع أن يتكلم؟ و مقال آخر بعنوان "مختارات من دراسة التابع" بالمشاركة مع رانا جيت غوها Ranajith Guha (مؤرخ من جنوب الهند) الصادر عام 1988م فضلا عن عشرات المقالات والبحوث والمؤتمرات ، و كل هذه الأعمال جعلتها تتبوأ مكانة كبيرة في دراسات ما بعد الاستعمار ودراسات التابع.[2]

اشتهرت سبيفاك بدراستها لواقع الطبقة التابعة في المجتمع و قد وصفها أحد زملائها : " أنها نموذج للثقافة الجامعية الهندية مثقلة بالدراسات العليا في الجامعات الأمريكية، تركيبة علمية قد تكون أفضل المتاح على وجه الأرض" أما هي (سبيفاك) فتصنف نفسها على أنّها "ماركسية نسوية تفكيكية عملية"، منحتها حكومة الهند جائزة بدما بهوشان Padma Bhushan تكريما لخدماتها سنة 2013م ، كما حصلت على جائزة كيتو Kyoto Prize للفنون والفلسفة في عام 2012م ، و لهذا شكلت سبيفاك مثالا معبّرا عن مشروعها المتميز في الاهتمام بالآخر و ثقافتها المحلية[3].

1- دراسات التابع :Subaitern Studies

إلى أي حد نجحت قوة الاستعمار في إسكات المستعمَر؟ وحينما نؤكد القوة التدميرية للاستعمار فهل نموضع المستعمَرين بالضرورة كضحايا عاجزين عن الرد. من ناحية أخرى، لو اقترحنا أنّ رعايا الاستعمار يستطيعون "الحديث" ومساءلة السلطة الاستعمارية فهل نصوّر مثل هؤلاء الرعايا المقاومين بطريقة رومانسية ونقلل من شأن العنف الاستعماري؟ بأي أصوات يتحدث المستعمرون – بأصواتهم، أم بلهجات مستعارة من أسلافهم؟ هل يخدم مشروع استعادة التابع بصورة مثلى عن طريق تحديد انفصاله عن الثقافة المسيطرة،

[1] - ينظر : ياسين كريم ، دراسات ما بعد الكولونيالية عند جماعة التابع الهندية ، مجلة المدونة ، جامعة البليدة ، م6، ع3، 2019، ص740.

[2] - ينظر : ن . شماد، غياتري سبيفاك ، منظرة هندية لخطاب ما بعد الاستعمار ، مجلة ثقافة الهند، الهند ، م65، ع 1 ، 2014م ، ص 37.

[3] - ينظر ، المرجع نفسه ، ص 39.

أم بالتركيز على الحد الذي صاغ به العمليات والثقافات التي أخضعته؟[1] وأخيرا هل من الممكن للمثقف تمثيل صوت التابع بصورة صادقة وحقيقية يمكن معها الحديث عن كيفية عمل الإيديولوجيات ؟ وإلى أي درجة يكون فيها التابع نتاج الإيديولوجيات المسيطرة؟

كل هذه الأسئلة وغيرها كانت محور الدراسات ما بعد الكولونيالية غير أنه من المهم الإشارة إلى أنّ الرغبة في الإفصاح عن وجهة نظر المسحوقين ليست جديدة بالطبع فقد حاول الماركسيون والنسويون وحتى المؤرخون الليبيراليون تضخيم أصوات أجواء من المقهورين كأصوات العمال عند الماركسيين.

أما دراسات التابع فكانت من موضوعات ما بعد الكولونيالية أفرزتها خطابات ما بعد الاستعمارية، وقد بدأت على وجد التحديد في الهند ضمن سلسلة من المقالات تحمل عنوانا جامعا "دراسات التابع : كتابات في التاريخ والمجتمع الهنديين" في عام 1982م على هيئة سلسلة من التدخلات في بعض النقاشات المتعلقة بكتابة التاريخ الهندي الحديث وكان ملهمها المؤرخ الهندي رانا جيت غوها **Ranajith Guha** (1932م/..) المتخصص بتاريخ الهند الذي كان يدرس حينئذ في جامعة سَسِكس، وبات للسلسلة الآن حضور عالمي يجاوز الهند أو جنوب آسيا كنطاق للتخصص الأكاديمي، وتجاوز مداها الفكري ذلك المدى الذي يبلغه فرع التاريخ إذ أبدى منظرو ما بعد الكولونيالية من خلفيات تخصصية مختلفة اهتماما بهذه السلسلة.[2]

وكل هذه المجهودات تصب في مصب واحد هو الرغبة في إعادة التاريخ الهندي بالاعتماد على التاريخ الشفوي المنسي و المستبعد من المستعمَر لأهداف سياسية بطبيعة الحال، فـ « تاريخ لهند بالنسبة لهم لم يمثله صراع الطبقات المغلقة والتحيزات الدينية و الفئوية ، والمرويات السردية وأحوال المعدمين في الأرياف والمدن و تبعية المرأة و كل الجماعات التي لم تنتج تاريخا مكتوبا ، أما التاريخ الرسمي الذي دوّن في ضوء التصور الاستعماري فهو مجتزأ و نخبوي وزائف ولا يمثل حقيقة بلاد غنية بتاريخها و أفكارها وأعراقها و عقائدها ».[3]

تؤكد غياتري سبيفاك في كتابها "هل يستطيع التابع أن يتكلم ؟ أنّ النخبوية قد هيمنت على تأريخ القومية الهندية لفترة طويلة – النخبوية الاستعمارية و النخبوية البرجوازية القوميّة مشاركة الانحياز بأنّ من

[1] - آنيا لومبا ، في نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار ، تر: محمد عبد الغني غنوم، دار الحوار ، سوريا ، ط1، 2007، ص 233.

[2] - ديبيش شاكرا بارتي ، دراسات التابع والتأريخ ما بعد الكولونيالي، تر: ثائر ديب ، مجلة سطور ، ع3، 2016، ص 8.

[3] - ن . شماد، غياتري سبيفاك ، منظرة هندية لخطاب ما بعد الاستعمار، ص 42.

صنع الأمة الهندية و طوّر الوعي و القومية و ما أكد تلك العملية كان حصرا أو بالدرجة الأول منجزات النخبة. ففي التأريخ الاستعمارية تنسب هذه الإنجازات إلى الحكام الاستعماريين البريطانيين و الإداريين و السياسات و المؤسسات والثقافة.[1]

إنّ تاريخ الهند هو تاريخ السياسة الهندية المنبثق من المؤسسات التي أدخلها البريطانيون لحكم البلاد ... و لا يسع المؤرخون النخبويون سوى أن يساووا السياسة بجملة الأنشطة و الأفكار لدى أولئك المنخرطين مباشرة في تشغيل هذه المؤسسات أي الحكام الكولونياليون و مريديهم الجماعات المسيطرة غي المجتمع المحلي [2].

ومن ثم كانت النخبة الهندية في أفضل الأحوال مهتمة بصوت الأخر (المستعمِر) ولكن غياتري سبيفاك ظلت تبحث و تصر على أن موضوع التابع (المستعمَر) فير متجانس بشكل لا رجعة فيه.

ويعود أصل كلمة تابع **Subaltern** بالإنجليزية إلى القرن السادس عشر وتعني العريف في الجيش البريطاني دون رتبة الضابط أي من يتبّع الأوامر وفق سلم التراتبية العسكرية ، و قد كان الفيلسوف الإيطالي أنطونيو غرامشي **Antonio Gramci** أولا في كتاباته السياسية و ذلك للإشارة إلى الفئات الأقل مكانة في المجتمعات سواء كانت فئة دينية أو جنسية او عرقية ، فالتابع هو الفرد الذي يعيش فيه ضمن مجموعة مهمشة غير قادرة تماما على التعبير عن حاجاتها و تطلعاتها أو رؤيتها.[3] فالتابع هو الآخر المستضعف ، هو الهامش في مقابل المركز هو الفرد المقهور والفلاح الأمي، و المرأة الصامتة في العالم الثالث وصوت المرأة في مقابل صوت الرجل هو حشود العمال المستضعفين... وسواهم من الجماعات التابعة (المضادة للنخبة).

يتضح من ذلك أنّ "التابع" وصف لشيء عسكري و قد استخدم غرامشي **Antonio Gramci** هذا المصطلح لأنه كان في السجن و بالتالي اضطرّ للرقابة الذاتية ، وقد استعار مؤرخو التبّع هذا المصطلح من غرامشي وتمكنوا من تحويره، ويعني هذا المصطلح لهم الشعب، النخب الأجنبية، النخبة

[1] - ينظر : غاياتري سبيفاك، هل يستطيع التابع أن يتكلم ، تر: خالد حافظي، صفحة سبعة للنشر و التوزيع ، المملكة العربية السعودية ، ط1، 2020 ، ص 50/49.

[2] - ديبيش شاكرا بارتي ، دراسات التابع والتأريخ ما بعد الكولونيالي، تر: ثائر ديب ، مجلة سطور ، ص 12.

[3] - ن . شماد، غياتري سبيفاك ، منظرة هندية لخطاب ما بعد الاستعمار، ص 42.

المحلية أو حتى السكان الأصليين الذين يتسلقون السلّم الاجتماعي في حالات متنوعة للغاية ، هو تابع كل شيء لا يمكن الوصول إليه وفقط الوصول المحدود إلى الامبريالية الثقافية مما يفتح مساحة من الاختلاف[1].

استفادت جماعة دراسات التابع في التراث الخصب الذي تركه المفكر و السياسي الإيطالي غرامشي المعروف بخلفياته الماركسية واستثمرت أفكار فرانس فانون وخاصة في كتابه" المعذبون في الأرض" الذي يعد المدونة الأكثر أهمية في الفكر المقاوم للخطاب الاستعماري [2]، ضف إلى ذلك وظفت التحليلات النقدية الصارمة للفكر الغربي عند ميشال فوكو وجاك دريدا وادوارد سعيد . هذا الأخير الذي يعد الفيصل الحقيقي في التصور النقدي الإستشراقي والذي أكد في بحوثه أن صورة الشرق هي الصورة التي رسمه الغرب له وفق ايديولوجياته و تطلعاته. و بالتالي لا يمكن الحديث عن الشرق إلا بالتخلي عن الصورة الاستعمارية.

إنّ دراسات التابع هي مشروع ثقافي جماعي من دراسات ما بعد الاستعمار ، صدر المجلد الأول من دراسات التابع في عام 1982م ،و صدر المجلد الحادي عشر منها في عام 2000م ففي أقل من ثلاثة عقود طبعت أكثر من عشر مجلدات تضمنت خيرة النماذج من هذه الدراسات المتنوعة في موضوعاتها وقضاياها، وهذه المجموعة الضخمة من البحوث كشفت طبيعة المناقشات النظرية و المنهجية التي انخرطت بها دراسات التابع ولا يمكن انكار الدور المركزي الذي قام به محرر هذه الدراسات المؤرخ الهندي رانا جيت غوها **Ranajith Guha** المرسخ لجذورها في تاريخ الفكر الحديث[3].

كان لابد لهذا الإنجاز الفكري و النقدي الضخم أن يتجاوز حدود الهند و يبلغ مداه الباكستان و الصين واليابان وإفريقيا وأمريكا اللاتينية و يمثل دراسات التابع مفكرون و نقاد مثل هومي بابا ، غوها، غاياتري سبيفاك ، روميلا ثابا ، و على الرغم من السبق لجماعة الهند و جنوب شرق آسيا ،تجدر بنا الإشارة جماعة دراسة التابع بأمريكا اللاتينية و تعرف بـ "LASSG" و قدمت تحليلات شديدة الأهمية عن أوضاع المجتمع الكاريبي الذي خضع للاستعمار الاسباني، و عليه « لم تبق دراسات التابع حبيسة الهند التي بدأت فيها ، إنما أصبحت عابرة للقارات فيها وهي تتقاسم رؤى ووجهات نظر كثير من النقاد و المفكرين في كل العالم تقريبا ، بما فيه العالم الغربي ، وقد شمل ذلك الفنون والآداب و الفكر بسائر اتجاهاته .....»[4].

---

[1] - ينظر : غاياتري سبيفاك، هل يستطيع التابع أن يتكلم ، تر: خالد حافظي، ص 11

[2] - هويدا صالح ، الهامش الاجتماعي في الأدب / قراءة سوسيوثقافية ، رؤية للنشر والتوزيع، مصر، ط1، 2015، ص 66.

[3] - ن . شمناد، غياتري سبيفاك ، منظرة هندية لخطاب ما بعد الاستعمار، ص43.

[4] - هويدا صالح ، الهامش الاجتماعي في الأدب / قراءة سوسيوثقافية ، ص 68.

لقد عملت دراسات التابع على تقديم بحوث جادة فيما يتعلق بمجال دراسات المرأة، والجنوسة والأقليات والأديان والأعراق والطبقات و الحشود الجماهيرية ، كما سعت إلى تصحيح السرد الذي دوّنه المستعمِرون لتاريخ المستعمَرين، ومن الطبيعي أن يكون اختلاف شاسع بين ما يكتبه المستعمَر وبين خطاب التابع ، فهل استطاع التابع فعلا أن يتكلم؟ وكيف نظرت غاياتري سبيفاك لذلك في كتابها بوصفها أوّل منظرة نسوية لما بعد الكولونيالية؟ .

2– التابع عند غاياتري سبيفاك : شكلت دراسات التابع عند غاياتري هاجسا معرفيا أخذ حيزا واسعا من نشاطاته و بحوثها الأكاديمية وتقترح سبيفاك في مقالتها هل يستطيع التابع أن يتكلم أنه « يستحيل علينا استرداد صوت التابع أو الفرد المقهور، وتقول إنّ ناقدا راديكاليا مثل فوكو، الذي أزاح الفرد البشري عن المركز بكل ما في الكلمة من معنى يميل إلى الاعتقاد أن الأفراد المقهورين يمكنهم الحديث عن أنفسهم ، لأنه لم يكن لديه أي فكرة عن سلطة القهر الاستعمارية خصوصا الطريقة التي تقاطعت فيها تاريخيا مع نظام البطريريكية »..[1]

وظفت دراسات التابع مفهوم التمثيل الذي اقترحها فوكو وطوره ادوارد سعيد في نظريته النقدية القائمة على هذا المفهوم كما تأثرت بمناهج ما بعد البنيوية و هي الدراسات السيمائية و التفكيكية و نظرية التلقي ومنها الدراسات المتخصصة في قضايا الخطاب واستفادت غياتري سبيفاك من كل ذلك في مجال دراسات اللغة و قوة الخطاب ، فكشفت طبيعة التعارض بين الثقافات الأصلية و الثقافات الاستعمارية، و طوّرت جوانب حيوية في مجال دراسة المرأة حيث فتح المجال أمام كتابة تاريخ جديد للأنوثة لأن تمثيلها عرف غيابا في خطابات مدارس الحداثة وما بعد الحداثة وبمرور الوقت أصبحت المرأة موضوعا أساسيا في دراسات التابع [2].

وتأتي فكرة سبيفاك لتحدي الادعاء السهل في أنّ مؤرخ ما بعد الاستعمار يمكنه استراد وجهة نظر التابع ، وفي الوقت تأخذ سبيفاك بجدية رغبة مفكري ما بعد الاستعمار في التركيز على القهر وتقديم وجهة نظر الناس المقهورين .

ففي مؤتمر "الماركسية وتفسير الثقافة" الذي عقد في جامعة إلينوس الأمريكية عام 1983م فقدمت غاياتري سبيفاك بحثا نقديا لمشروع دراسات التابع ، توّج بنشر متابها "هل يستطيع التابع أن يتكلم؟ حاججت فيه سبيفاك أنّ التابع يتكلم بـ "لغة" قد لا يفهمها المنخرط في مشروع دراسات التابع الذي يعمل

[1] - آنيا لومبا ، في نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار، ص 235.

[2] - ينظر: ن . شمناد، غياتري سبيفاك ، منظرة هندية لخطاب ما بعد الاستعمار،.ص45.

وفق منظومة فكرية مختلفة عن تلك التي يتمتع بها المهمشون، وقد جاء البحث في صيغة السؤال "هل يستطيع التابع أن يتكلم؟".[1]

ولأول وهلة يبدو و كأنه نوع من الاستفهام الاستنكاري، فمن الطبيعي أن يتكلم التابع ، فهو كائن بشري يستطيع الكلام و التعبير، ولكن مفاد الفكرة التي تريد سبيفاك طرحها هو لو توفرت السياقات الثقافية المؤاتية للتابع لكي يتكلم؟ وهل يتمكن من الحديث وإسماع الآخرين صوته؟ فالشعوب المستعمرة سلب منها حق تمثيل نفسها أي سلبت حق الكلام ، والكلام هو الوسيلة الوحيدة لتأسيس معرفة متماسكة عن التابع، ووعيه ووجوده ، و أحلامه و تطلعاته . بعبارة أخرى هناك فرق كبير بين الفكرة القائلة إنّ التابع فرد مندمج في جماعة ، و الأخرى القائلة إنّه كائن جرى تمثيله عبر الخطاب الاستعماري،[2] ومن ثم فهو لا يمثل نفسه فعلا و إنما هناك من ناب عنه في الكلام وفق ايديولوجياته الاستعمارية، ومن ثم فالتوصيف الاستعماري لا يمكن أن يكون صادقا و حقيقيا.

ناقشت سبيفاك قضية المرأة الأرملة في المجتمع الهندي و هو ما يعرف في الطقوس الهندية باسم الساتي Satis، (طقس المرأة الأرملة التي تُحرق بعد حرق زوجا المتوفَى) لقد كان : «اختيار سبيفاك للأرملة المحروقة كرمز للتابع اختيار مهم ، مثل هذه الشخصية هي حقيقة أكمل مثال على صمت التابع بما أنها مقولة مفهومية واجتماعية تنشأ فقط حينما يموت المرء ، المرأة التي ستضحَى هي مجرد أرملة، والمرأة الضحية sati هي من حيث التعريف فرد مصمَّت و صمتها يشير إلى قمع كل النساء في الهند الاستعمارية، لكن في الوقت نفسه ليست كل النساء يمكن إسقاطهن في مثل هذه الشخصية ، و قد اقترحت في مكان آخر أننا نحتاج إلى موضعة المرأة الضحية sati ليس من خلال التركيز على الأرملة التي ماتت فقط ، بل أيضا على بعض أولئك الأرامل الاتي نجون ليحكين القصة، و بالطبع ليس كل أولئك اللاتي نجون قصصن أي قصة ، والأرشيف الاستعماري كما الأرشيف الأصلاني ليسا كريمين في حفظ الحكايات التي حُكيت، أيضا الخطابات التي يحكينها ليست شهادات واضحة عن "قوة" الأنثى، إذا كنا نعني بالقوة شعورا بالمعارضة »[3].

فهل يستطيع التابع (المرأة الأرملة sati) أن يتكلم بين النظام الأبوي الذي يمارس سلطته الدائمة وبين النظام الاستعماري الذي يفرض ايديولوجيته في كتابة التاريخ.

[1] - المرجع نفسه ، ص 46.

[2] - ينظر : المرجع نفسه ، ص 47.

[3] - آنيا لومبا ، في نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار، ص 235/234.

فبين النظام الأبوي و الامبريالية و تأسيس الموضوع و تشكيل الكائن ، تختفي صورة المرأة في مكوك عنيف في التصوير المنزاح لـ "امرأة العالم الثالث" العالقة بين التراث والحداثة، ستعيد هذه الاعتبارات النظر في كل تفاصيل الأحكام التي تبدو صالحة لتاريخ الجنسانية في الغرب:" ستكون هذه خاصية القمع، التي تميّزها عن المحظورات التي يحافظ عليها الجزائي البسيط : يشتغل القمع جيدا بصفته حكما على الاختفاء ولكن أيضا كإلزام على الصمت و تأكيد عدم الوجود [1]

إن الطقس الهندوسي الذي تقوم المرأة فيه برمي نفسها في محرقة زوجها المتوفي وفاء له تحكمه النظام الأبوي الذي يشرع المرأة على أنها قصة وفاء لامرأة لا ترغب في العيش بعد وفاة زوجها، فـ « الوطنيون الهنود الذين يستندون على النظام الأبوي يؤسسون خطابا مشغولا بنوايا النساء اللاتي يمارسن طقس sati ويرون أن المرأة هي نفسها ترغب في أن تموت»[2] وتحكمه أيضا القانون الاستعماري البريطاني بحكم تشريعهم لقانون يمنع طقس sati سنة 1929م خلال الانتداب البريطاني للهند و« يؤسسون تشريعهم هذا على أساس ينطلق من مفهوم التحضير الشامل و الإنسان الطبيعي ، و كأنهم يريدون أن يقولوا إنّ الانسان الأبيض قد أنقذ المرأة السمراء من الرجل الأسمر».[3]

إذن ما نستنتجه أنّ الطقس الهندوسي sati:

1- **من منظور هندوسي** (السلطة الأبوية و الثقافة الذكورية) المتحكم في خطاب المركز : رآهن نساء وفيات، بطلات شجاعات، وزوجات لا يرغبن في العيش بعد أزواجهن.
2- **من منظور استعماري** (الانتداب البريطاني) نساء سود ظلمهن الرجل الأسود وأنقضهن الرجل الأبيض، مثيرات للشفقة والعطف، مظلومات من النظام الأبوي و السلطة الدينية .

و المؤسف أنه في كلتا الحالتين لا يمكن للتابع أن يتكلم ولا يعبر عن رأيه ولا أن يُسمع صوته، وهناك دوما من ينوب عنه في تحديد رأيه ومسار قصته، إنه تاريخ للقمع وتكـميم الأصوات.

لقد اجتمعت هيمنات عديدة للنصوص الدينية الهندوسية المشجعة على حرق المرأة وبين فكرة تبعية المرأة للرجل بفعل هيمنة الثقافة الذكورية وهيمنة الأبوية والهيمنة الاستعمارية، و عليه بقي صوت المرأة تابعا صامتا ينوب عنه الجميع ولا يستطيع الكلام، وهو ما ختمت به غاياتري سبيفاك كتابها :« إن التابع لا

[1] - ينظر : غاياتري سبيفاك، هل يستطيع التابع أن يتكلم ؟، ص109/ 110.
[2] - ن . شماد، غياتري سبيفاك ، منظرة هندية لخطاب ما بعد الاستعمار، ص 47.
[3] - المرجع نفسه ، ص 47.

يستطيع الكلام . لا توجد فضيلة في قوائم غسيل الملابس العالمية مع "المرأة" باعتبارها عنصرا تقيّا لم يتلاش التمثيل.».[1]

ولهذا تقترح سبيفاك أنه من الضروري على مفكري ما بعد الاستعمار التفكير في سرديات التابع و إعادة النظر فيها وفق تصورات جديدة و مختلفة غير تلك التي كتبها المستعمِر الكولونيالي، و بالتالي تمثيل التابع ، إنّ استعادة صوت التابع ينبغي أن يكون وفق تصوّر جديد بعيدا عن ما قررته الهيمنة الذكورية والاستعمارية.

إنّ وضع التابع في داخل هرميات متعددة لا يكف، علينا أيضا أن نفكر بالعلاقات المهمة بين تلك الهرميات ، و بين القوى و الخطابات المختلفة ، ولأن مفكري ما بعد الحداثة بمن فيهم فوكو لا يهتمون بهذا التداخل ، فإنّ عملهم لا يساعنا في عمليّة استرداد الذات التابعة في التاريخ الاستعماري[2]

غير أن غياتري سبيفاك تصل إلى فكرة مفادها أن استرداد صوت التابع مشروع يصعب أن يتحقق في ظل السلطة الأبوية و الهيمنة الاستعمارية كما ذكرنا سابقا، فـ « الكلام في عُرْف سبيفاك هو فعل وردة فعل بين باث ومتلق ، و هذا الذي قصدت به سبيفاك بعدم المقدرة على الكلام ، و ليس الكلام بما هو منجز لفظي إنساني يتم على مستوى جهاز النطق ، إنما الكلام بم هو تفاعل و استجابة بين أنا و آخر بين مستعمِر و مستعمَر ، فحين يحاول التابع أن يتكلم يصبح حديثه محرّفا بصفة كليّة لأن الآخر/ المستعمِر لا يريد أن يتلقى الخطاب المختلف عنه، أو ليس جاهزا ليدخل في حوار مع هذا المختلف عنه ، بهذا يصبح نظام التواصل عن آداء وظيفته التفاعلية، فالتابع لا يستطيع أن يدخل ضمن شبكة تحاورية نتيجة التباينات و الفوارق الاجتماعية التي أنتجها المستعمر، فلا صوت يعلو على صوت المستعمر »[3]ومن ثم لا يمكن للتابع أن يتكلم.

ويمكن أن نلخص أهم المآخذ التي أقرتها سبيفاك على مفهوم التابع فيما يلي ذكره :[4]

- التابع مغمور الصوت فهناك دائما صوت نخبوي يتحدث عنه وباسمه.
- التابع صيغة كولونيالية أفرزتها الإمبريالية الغربية.

---

[1] - غاياتري سبيفاك، هل يستطيع التابع أن يتكلم؟، ص 115.

[2] - آنيا لومبا ، في نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار، ص 238.

[3] - ياسين كريم ، دراسات ما بعد الكولونيالية عند جماعة التابع الهندية ، ص 742

[4] - مديحة عتيق ، ما بعد الكولونيالية ،/ مفهومها، أعلامها أطروحاتها، مجلة دراسات و أبحاث، ا جامعة الجلفة ، م7، ع 18 ، 2015، ص 242.

- هناك تركيز على مضامين الخطاب التابعي – إن وجد- وإهمال للجانب الفني.
- قلة الخطابات التابعية وشكوك حول نقائها من تدخل أصوات النخبوية.

والحل لإيصال صوت التابع أن يعمل المثقفون على توعيته والحديث عنه وإسماع صوته وهي المهمة الجديدة التي يجب أن يقوم بها المثقف بدل تأييد السلطة وتمرير ايديولوجيتها.

خاتمة:

من بين النّتائج التي توصلنا إليها

*شكل الخطاب ما بعد الكولونيالي تحوّلا بارزا في قراءة التاريخ الهندي بوصفه خطابا مشغولا بصوت التابع فقد دافعت غاياتري سبيفاك عن صوت المرأة الأرملة المغيّب المضطهد من قبل الرجل ، ورفضت تهميش المرأة و إسكات صوتها من قبل النظام الأبوي و الهيمنة الاستعمارية .

*كانت غياتري سبيفاك أول منظرة نسوية ما بعد الكولونيالية قدمت تصورا جديدا لمقولات التابع و المهمشين والمرأة الشرقية كما اهتمت بالثقافة والأدب والمهاجرين ودافعت عنهم، فعملت على نبذ الهيمنة و السلطة المركزية الغربية.

قائمة المصادر والمراجع:

- **الكتب بالعربية :**

1- ماهر شفيق فريد ، ما وراء النص / اتجاهات النقد الأدبي الغربي في يومنا هذا ، الدار المصرية اللبنانية ، لبنان ، ط1 ، 2016 .

2- ميحان الرويلي وسعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، إضاءة لأكثر من سبعين تيارا ومصطلحا نقديا معاصرا، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط3، 2002، ص:158.

3- هويدا صالح ، الهامش الاجتماعي في الأدب / قراءة سوسيوثقافية ، رؤية للنشر والتوزيع، مصر، ط1، 2015.

- **الكتب المترجمة :**

1- آنيا لومبا ، في نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار ، تر: محمد عبد الغني غنوم، دار الحوار ، سوريا ، ط1، 2007.

2- ديبيش شاكرا بارتي ، دراسات التابع والتأريخ ما بعد الكولونيالي، تر: ثائر ديب ، مجلة سطور ، ع3، 2016.

3- غاياتري سبيفاك، هل يستطيع التابع أن يتكلم ، تر: خالد حافظي، صفحة سبعة للنشر و التوزيع ، المملكة العربية السعودية ، ط1، 2020 .

- **المجلات:**

1- بسمة جديلي ، دراسات ما بعد الكولونيالية من منظور أبرز أقطابها ، مجلة إشكالات في اللغة و الأدب ، تامنغست ، العدد9، 2016 .

2- صبحي حديدي، الخطاب ما بعد الكولونيالي ، في الأدب والنظرية النقدية، مجلة الكرمل، العراق، العدد 47، 1 يناير1993 .

3- مديحة عتيق ، ما بعد الكولونيالية ،/ مفهومها، أعلامها أطروحاتها، مجلة دراسات و أبحاث، ا جامعة الجلفة ، م7، ع 18 ، 2015.

4- ن . شمناد، غياتري سبيفاك ، منظرة هندية لخطاب ما بعد الاستعمار ، مجلة ثقافة الهند، الهند ، م65، ع 1 ، 2014م.

5- ياسين كريم ، دراسات ما بعد الكولونيالية عند جماعة التابع الهندية ، مجلة المدونة ، جامعة البليدة ، م6، ع3، 2019.